مالك سمارة

"الحج من حفتصيبا": الأصلانيّ كطارقِ قلقٍ عابر ليعقوب شطاينبرغ

هذه شاردة أخرى من مخيلة يعقوب شطاينبرغ عن عرب/ أصلانيي فلسطين، تضاف إلى أخريين قدّمناهما في العدد السابق، وعيّنّا فيهما على صور من مجاز «المتوحش النبيل»، المتواترة في الأنثروبولوجيا الاستعمارية. لكنها في التجربة الصهيونية محضُ «شوارد» بالذات، ليس في أدب شطاينبرغ وحسب، إنما في الأدبيّات الصهيونيّة المبكّرة، وهذا من شواهد مقولة «أرض بلا شعب» التي بثّتها البروباغندا الصهيونية في الجاليات اليهودية عبر العواصم، وصولًا إلى أميركا (انظر/ي ترجمة خطاب لويس برانديس في العدد السابق). ثمّ في لحظة تصدّعِ اليوتوبيا أمام الواقع، بدا أن أثر الصدمة كان مركّبًا: لقد تشكّل في طوايا النفسية اليهوديّة نفي عنيف، ونكرانيّ، وقسريّ، لأهل البلاد، وفي مقابله كان ثمّة اعتراف مرتبك، ومنقوص، وعالق في لحظة «الاستكشاف» الأولى، لحظة "الإعجاب" أو "الاستغراب". ودون ذينك عاطفة مركّبة أيضًا: الأولى شوفينية، معبّأة بالفخر، والثانية قلقة، مثقلة بوساوس الذنب وطقوس الحداد.

ويمكن القول إن الفلسطينيين في حيّز الرؤية الصهيوني محصورون، على امتداد تاريخ الصراع، في تلك الثنائيّة المركّبة: النفي العنيف، منذ تخيّل المهاجرون الأوائل فلسطين «أرضًا بلا شعب»؛ والاعتراف المرتبك، منذ كانت «الطريق إلى الجحيم محفوفة بالنوايا الطيبة». يشبه نمط الاعتراف هذا، لو استدعينا مقولة دريدا إلى النقاش، طقوس التطهر الذاتي في المسيحية: أي الاعتراف الذي لا تترتّب عليه عاقبة، أمام آخر غير مرئي، ومحايد تمامًا؛ طلبًا للتكفير/ التطهّر مما يثقل النفس من مشاعر الذنب وحسب.

وذلك أيضًا مكنون سيرة أدبيّات الاعتراف الصهيونيّة، منذ «الحج من حفتصيبا"، حتى ما كُشف عن مجزرة الطنطورة بالأمس القريب. تظهر مأساة الفلسطيني/ الضحية داخل الرواية الصهيونية، في أحسن الأحوال،

وكأنها «عارض طبيعي» للحظة اصطدام حتميّة و"مؤسفة"؛ وكأنها كارثة «قدَريّة» لا مناص منها. وها هنا، في القصة المترجمة بين أيدينا، يكرر شطاينبرغ مفردات «المصير» و«القدر» عند الحديث عن «جبال السامرة» (السلسلة الجبلية الوسطى في فلسطين)، وكأنّه يستشرف في سريرته أمرًا ما محدقًا، بينما يتأمّل تلك الجبال في خلواته ليلًا، بروح يهوديّة توّاقة، من فوق مستوطنة «حفتصيبا» التي أقيمت عام ١٩٢٢، على يد عصبة يهودية قدمت من تشيكوسلوفاكيا وألمانيا.

رغم ذلك، في ظلال هذه الصبوات المرسلة من فوق المستعمرة، صوب السامرة، و«الماضي اليهودي»، و«الوطن الكامل» -كما يتردد في السرد- لم ينفكّ شطاينبرغ، في شخص بطل القصة الذي لا اسم له، يلاحظ ذلك الحج الفلسطيني، لكن في غسق الليل فحسب، وبعين قلقة، هواجسية. تارة يراه محاطًا بهالة ما سحرية، وتارة تتمغط أطرافه في الضباب كالأشباح؛ غير مبارحٍ بذلك صورة المتوحش النبيل المسكونة بالرؤى الغرائبية. لكن شطاينبرغ يتجاوز هنا الوصف والعاطفة ليلامس عصبًا أكثر دقة. لا يظهر الحج في القصة إلا لمامًا، بعد سرد غزلي طويل عن مشاهد البلاد وتضاريسها؛ وفي أغلب أوقاته يظلّ رابضًا في موضع واحد: حجر الأساس، أو حجر السقيا في الترجمة الحرفية، أو الحجر المقدس الذي تضمه قبة الصخرة، في الترجمة الاصطلاحية. يقيم شطاينبرغ هذا النصب الرمزي، بكل الاستعارات التي يشتملها، في وسط مسرح القصة، منزلًا بذلك، في قطعة نادرة قياسًا على ما كتب في ذلك الزمان، الوجود اليهودي في البلاد إلى أرضية الصراع مع الوجود الأصلاني. لكن في ليلة ما يفزّ فيها من منامه فزعًا، سرعان ما يعلن عن هزيمة الفلسطيني، وإن رمزًا، بعد منازعة سريعة على تخوم حجر الأساس ذاك. يضرب الحج عصاه منسحبًا، على وقع عواء مكتوم يشبه مراثي الحداد؛ وبين أبخرة الضباب التي «تحمل الصبوات اليهوديّة تجاه البلاد»، تختفي صورته رويدًا رويدًا؛ كما لو أنه طارق قلق ليليّ، أو كابوس عابر.

من الخضيرة، موطن البستان البديع،[1] ارتحلت في أحد الأيام إلى تلال المجتمع الزراعي في حفتصيبا. بدا لي المكان، وفيه رسوم طبيعة مهملة مكشوفة أمام مرأى البحر، موحشًا ومستترًا تمامًا، بلا أي قطعة أرض واصلة بينه وبين خضيرة الخصيبة. لكني استطبته وقعدت هناك أيّامًا، ثم ليس سريعًا اكتسبت نسق إدراك ما: الأشجار اللينة، التي كنت أعزق تحتها في منحدر التلة، بدت لي مشذّبة ومنوطة بالرعاية؛ وجدول الماء المسودّ، المنحدر إلى البحر عبر شق ضيق وعميق، بدا لي بعيدًا بعض الشيء- كما لو أنّه محفور سلفًا في الوادي العاري، وخارج عن النسق الاعتيادي لرموز الوطن. لم أجرؤ على النزول إليها- إلى المياه العزيزة علينا كدمائنا في كل مكان على أرضنا. مع خفوت النهار حيث لا قبس من شمس، كنت أخيّر المكوث في قمة الشاطئ الحادة متأمّلًا الجدول المتعرج، الذي كان يُرى في نهاية طريقه قبيل انسيابه إلى حضن البحر، مفرّغًا من رجع صدى المسافة. من ناحية اليسار امتدّ البحر وكان مرآه متعة للناظرين، كأيّ مسطّح ذي ماء غزير يُرى من علٍ. ورغم أنه -هذا البحر الكبير- يندفق ويعود صوبك في آن معًا، فإنّك متى ما نظرت إليه تره دخيلًا على هذه الأرض العزيزة. بل بدا لي كمملكة بلا سادة، كتأبين للجبروت، أو لمجد تهشّم منذ عصور خلت فوق أرض آباء عتيقين. من اليمين، تلألأت سلسلة روابٍ مكشوفة- تِلْكم العتبة الصفراء لأرض السامرة الجليلة؛ من هناك كانت تتراءى لي صورة الوطن، وكنت أهذي هذيًا في غرامها. كأن نفسي، في أوقات الهذيان تلك، لم تبسط هيامها على امتداد البلاد، من دان إلى بئر السبع؛ وبدت وكأنها عانقت جبل أفرايم[2] وحده. تلكم باكورة غبطة كان مصيرها مقضيًّا، ورسم وطن بهيّ يتلاشى في لحظة خارجة عن الزمن.

الأشخاص الذين أكلت معهم خبز العمل بضعة أيام لم يخاطروا في ذلك المكان الغريب بالخروج والدخول، ولم يكثروا من الحديث حتى. كان جمعُهم القليل يجلس بسعة حول طاولة الطعام التي تشبه طاولة الآباء في العائلات كبيرة العدد. عبر الباب المشرع ينظر الجالسون إلى مسرح الشاطئ؛ إلى الجدول المنسرب في الشق، والتلال الرمادية وقد تراصت واحدة تلو الأخرى. حتّى أثناء المأكل الهادئ، الذي يلازم موائد المساء؛ نمّت عنهم صورة وجوههم، لمّا انعكس مجال الرؤية في عيونهم. لم يكن الحديث كالمعتاد، والصمت الذي لفّ الطاولة كان يشبه صمت التقوى لدى

١ "حفتصيبا" كان في البداية اسم مزرعة قرب الخضيرة، وقد انتقل الاسم إلى المستوطنة التي ستبنى على الجبل لاحقًا.

٢ الاسم التوراتي للسلسلة الجبلية الوسطى في فلسطين؛ وأفرايم هو أيضًا اسم أحد أسباط بني إسرائيل.

الرهبـان؛ وعندمـا يتسـحّبون مـن المائـدة يسـود صمـت كثيـف، إلّا مـن صـوت واحـد كان يـتردد في المـكان: هـو صـوت الرجـل الـذي كان يحـلّ عليـه الـدور للخـروج في عربـة الخيـل وتعبئـة المـاء. كلّ مـن أنهـوا وليمتهـم للتـو جلسـوا عـلى العتبـة يراقبونـه في سـكون وهـو خـارج إلى الجـدول. صلصـل الجـرس عـلى رقبـة الحصـان صلصلـة ذات رجـع متباعـد؛ ثـمّ بـدأ الصـوت يهبـط رويـدًا رويـدًا، كمـا لـو أن سـائس الحصـان راحـل إلى بلاد سـفليّة سـيعود منهـا سريعًـا. وهنـا همـد الضجيـج المعتـاد، وتلاشى المشـهد الـذي يتكـرر كل يـوم، واسـتغرق النـاس في هجوعهـم؛ منهـم مـن اتـكأ عـلى حائـط البيـت، وآخـرون اتكـؤوا عـلى حجـر أو أي تربـة معـدّة للاسـتلقاء. بـدت كأنهـا عيـون حارسـة، نبيلـة، مكرّسـة دون جهـد لغايـة مـا سـامية: في جوارهـا، كمـا لـو أنهـم إخـوة في جـوار إخـوة، كان يتمـدد الكادحـون أولئـك، المتيقّظـون إزاء أي شيء. مشـهد طبيعـي واحـدٌ فعـل كلا الأمريـن معًـا: نثـر هـواء السـامرة نشـوة عذبـة عـلى الحاضريـن، لكنـه في بعـض الأحيـان بـثّ فيهـم تسـاؤلات لا ماهيّـة لهـا. بـين التـلال الغريبـة تلـك، التـي تنسـكب مـع ميـاه النهـر النفيسـة إلى البحـر، يشـبّ حـبّ كامـن لبلاد غريبـة بعـض الـشيء، تخلّـت عـن مصيرهـا في لحظـة منقطعـة عـن الزمـن، وعـن رغـد حياتهـا مـن دون أن تـشرح. هنـا اعتـزوا بمـرأى الوطـن لا أقـلّ مـن يهـودا المعبّـأة بالذكريـات ومـن الجليـل الحبيـب. غـير أن الحـب امتـزج بمشـاعر خيبـة أمـل مقضيـة «منـذ البـدء". خـلال الأمسـيات، مـع انقضـاء يـوم العمـل، كان لا بـدّ مـن التفكّـر في أمـر مـا، واسـتدعاء صـور قديمـة إلى الذاكـرة. في يهـودا كان الأمـر أكثـر قابليـة للفهـم: هنـاك كانـت الأفئـدة تتطلـع إلى المسـتقبل وحسـب، إلى مسـتقبل غـضّ تمامًـا، يسـهل أن تُغنـي لـه الأغنيـات مـن قلـب محـبّ، وأن تُنقـش صورتـه في أحـلام موقنـة. أمّـا في ركـن السـامرة البعيـد، يحمـل النـاس أعبـاء تسـاؤلات المـاضي كذلـك؛ في سـاعات الشـوق والهـدأة، وحـين يتـوه بضـع أفـراد مـن المجموعـة هنـا وهنـاك، بـين تلافيـف الشـوك الـذي بذرتـه الطبيعـة في التـلال المهملـة، أو بـين الأجمـات في السـفوح المزروعـة. كأن حـداد أفـراد وحيديـن، في تلـك الأوقـات، كان لا يـزال يهيـم فـوق أفرايـم، ابـن البهجـة.

أثنـاء النهـار كان المـكان يشـتمل أناسـه بالصمـت، كمـا لـو أنـه يخفـي عنهـم أمـرًا مـا، لكـن في الليـالي ينجـلي رونـق الحيـاة. في السـماء تنسـدل ظلمـة مرصّعـة بالنجـوم، ودونهـا أقـام الهـلال، وانبسـطت ميـاه الفضـة تحتـه؛ وحتّـى هـذه في الليـالي غـير المقمـرة كانـت تبـدو للقلّـة المقيمـة هنـاك كطلـول محببـة. هنـا تجلـس لوهلـة عـلى الحجـر الكبـير المنغـرس في منتصـف الفنـاء المقابـل للمنـزل؛ إنـه يشـبه حجـر الأسـاس في المـكان، ثـمّ تيمـم قلبـك سريعًـا صـوب منحـدر التلـة الكبـيرة، حيـث أجمـات الأشـجار الخفيضـة، وتراهـا في مخيلتـك تتداخـل واحـدة واحـدة في دورة حياتيـة قصـيرة، مجبولـة مـن طـين رخـو ولـيّن، ثـم يهـدأ قلبـك سريعًـا، وتومـض في نفسـك ظـلال عذوبـة أم، وأبٍ وديـع رحـوم. ذلـك لغـز الليـل منـذ أن انكشـفت أسـاريره عـلى مهـد الطفـل؛ وأمّـه متـأوّدة عـلى حافتـه، نفسـها ممتلئـة عـلى سـعتها، وهـي التـي لـن تمتلـئ بعدئـذ بنـور النهـار. لكـم كان غريبًـا الشـعور بالفضـاء في الليـالي؛ الليـل المُسـبل يمـوّه الحـدود أيضًـا، وفي جـوف العتمـة، يعـرف الخيـال كيـف يصـوّر، بـلا عنـاء، نظامًـا واحـدًا، مصـيرًا متمّمًـا، ووطنًـا موحّـدًا متّصـلًا. قلّـة مـن أبنـاء جلدتنـا كانـت ترغـب خـلال الأمسـيات في الحديـث عـن تضاريـس البـلاد كلهـا. السـامرة أيضًـا، التـي لـم يبلـغ زمانهـا تمامـه، كانـت إحـدى تلـك التضاريـس. تحـت وهـج القمـر، انسـدلت صـورة البـلاد شـفيفة القيمـة كالبلّـور، وفي ظلمـاء الليـالي الصيفيـة طفـت في الأنحـاء مكتسـية كل بهارجهـا. ظـلال التـلال، المرتسـمة عـلى امتـداد البيـت مـن الناحيـة المقابلـة، بسـطت علينـا سـلامًا وخلـوة، كمـا تبسـط الجبـال الكثيفـة حـدودًا وأمنًـا. شـخص مـن أبنـاء جيـلي كان يخـرج مسـاء إلى الخضـيرة؛ ينـزل عـلى قـدم خفيفـة، بوصفـه كائنًـا جبليًّـا يحـبّ دائمًـا أن يـدوس عـلى تربـة يعرفهـا، خصبـة، مزروعـة بالبيـوت والمبانـي. بعـث أمـرُ هـذا السـاري في القاعديـن أيضًـا شـعورًا مـا جديـدًا. الخضـيرة التـي في الـوادي كـبرت حتـى اسـتدارت وصـار فيهـا الكثـير مـن الجـيران الطيبـين الموقّريـن، الذيـن وسّـعوا مسـاكنهم عـلى امتـداد جهـات الريـح. في أمسـيات كتلـك، لمّـا كان النـاس ينقصـون عـددًا، كانـت ثلّـة مـن الآخريـن تنتظـر الرائحـين والغاديـن؛ الهائمـين تحـت ظـلّ الليـل، حتـى إذا وصلـوا إلى تجمّـع سـكني، جلسـوا يتبادلـون أطـراف الحديـث، مـع أنـاس مجهولـين كانـوا قـد مـرّوا أو مكثـوا قبيـل مجيئهـم. أسـماء تلـك التجمعـات، حـين تنطلـق مـن فـم المتحـدث، نقشـت في أذهـان السـامعين انطباعًـا ناصعًـا وصريحًـا: كان هـؤلاء النـاس شـبيهين بالبحـارة الذيـن يخترقـون المنـارات التـي يصادفونهـا أثنـاء تجوالهـم؛ وكلمـا طالـت مـدّة جلوسـهم هنـا، بـدؤوا يستشـعرون المعانـي الكبـيرة في الدقائـق الصغـيرة؛ تحدّثـوا عـن أشـخاص شـجعان

بعينهم، وكانوا يتصوّرون أن هذه الأرض تختزن بطولة عمال وحراس لا حدود لها؛ أشّروا مرّة واثنتين إلى أنماط السكن المتهالكة، وفي المقابل كانوا يعددون، من مجرّد النظر، البركات الوفيرة لدى نمط حياة بعينه. في نهاية المطاف، حين كان الندى يتكاثف على وجه القمر، وقبيل أفول الحياة في منتصف الليل، بدت هسهسة البحر وكأنها آتية من بلاد بعيدة. في مثل هذه الساعة كان عواء أبناء آوى، الذي لفّ التلال، يوقظ في نفوس المقيمين إحساسًا بالوطن الكامل، بخباياه التي تبثّ روعًا كذلك العواء، بأسحاره الخفيّة، المجهولة بالأمس، المجهولة منذ ألف عام، بحقيقته المقرّرة التي اجترحتها أجيال عظيمة وتالدة منذ اللحظة التي كان فيها مداسًا تحت أقدامهم. لكن ها هنا الآن يُسمع صوت خطى؛ هل عاد الساري؟ لا، لقد هام حتى يقيم ليله بطوله في بحبوحة الخضيرة؛ والرجل الآتي ذو قامة طويلة مقوّسة، وكتفين محدودبين متّصلين، تزيّن وجهه لحية رمادية متجعدة، وفي يده عصا غريبة وصلبة. إنه الحج الذي ينضم إلى الحراسة في الليالي، الرجل المخضرم الذي سنحكي عنه، إذ لم يرغب في ترك هذا المكان منذ أن اشتراه سادة جدد، وسيتاح له المكوث مع الساكنين حارسًا حتى يحين الوقت. ها هو يقصد حجر الأساس، بينما يدق الأرض بعصاه خطوة إثر خطوة. مع عبوره تعبر ريح جديدة على القاعدين؛ من هذا الشيخ، وهو ليس في الواقع من عرب المنطقة، يتنزّل شيء من بشارة المنفى.

في الليالي كنت أحيانًا أفز فجأة، بلا حلم مفزع، ولا خفقان قلب، ولا بقايا غبش من أثر النوم. ثمّة فتية اشتدّ عودهم، وقد أحبّوا بملء روحهم للمرة الأولى، يستيقظون في جوف الليل ويتفكّرون في الحب بعيون فاغرة. سينحسر نهارهم، ويضيق مسآؤهم؛ ووحده الليل سيبلغ عندهم تمامه. حتى عندي، لا يبدو أمر اليقظة ملغِزًا؛ ففي تلك الأيام ذاتها، من قبل أن يُحكى عن شعب يشمّر عن ساعديه في أرض يهودا، أحب كثيرون الوطن الحبّ الأوّل: بلا أفق، ولا أمل، ومن دون أن تتوحّد صورتها. بحثنا وحلمنا أيّامًا وليالي، لكن في الطوايا ظلّ القلب يتوق إلى فهم كلّ شيء من جديد؛ وفي كلّ مرّة، لّما كنت أفيق بلا ميعاد، بدا لي وكأنني دائمًا كنت مستعدًّا لذلك- وكأنّي كنت أعرف شيئًا ما سلفًا. أرتدي ملابسي وأعبر ببطء ونفس مهيّأة عتبة البيت، لكن في الخارج، حينما يصلني صوت تبرّم كلب الحارس، كنت أتلكّأ بعض الشيء. بعد هنيهة يسكت الكلب، من كسل الشيخوخة ربّما أو لأنه اشتم بي رائحة المكان، لكنني أواصل المسير ببطء، كمن يتنصّل من مكان غريب. تحت ضوء القمر، الذي كان مكتملًا في تلك الليالي، رأيت الحج العربي بهيئته الكاملة، متكوّرة عند حجر الأساس، وعصاه الصلبة ملتصقة في يده باستقامة تامة؛ ورجل الليل هذا، الذي مكث بلا حراك، كان يبدو مفعمًا بالحياة لكن بلا إيقاع. لم يدر ظهره، رغم أن خطواتي كانت مسموعة في هدأة الليل. كنت أمشي حتى أقترب منه، ولا يتزحزح عقاله من فوق رأسه. ليلة بعد أخرى ظلّ الأمر على حاله: كان الكلب يهِرّ ويسكت، وأمرّ أنا قرب ظهره ولا يحرّك ساكنًا، وكنت أتعمّد أحيانًا المرور أمام عينيه ولا ينظر إلي. ذات مرّة قلت له من بعيد: "شلوم"، فرد "وعليكم السلام"؛ لكن صوته مرّ يتيمًا، أجشّ من أثر الشيخوخة، ومن الوحدة، أو السخط. انسللت بسرعة من تحت الدائرة السحرية المحيطة بحجر الأساس، وجلست زمنًا ما على سريري. حتّى في النهار كنت أفكّر زمنًا غير قليل بالحج الغريب، الذي كان يأسر نفسه كلّ ليلة في جلسة إسبات على الحجر. لم أعد أستيقظ في منتصف الليل لغرضي- من أجل التأمّل واللهفة في خضمّ صبوات الليل المكنونة. أمر ما كان ينغّص علي.

ثمّ حدث أمرٌ ملغز في ليلة غريبة عجيبة، انحفرت في ذاكرتي كالليلة الأولى للخروج من مصر. استيقظت بقلب مصطخب، وضعت عليّ كل ثيابي حتى رباط الحذاء، كما لو أنني ذاهب إلى طريق بعيدة. في الخارج استقبلتني أبخرة ضباب يكسوها البياض، وكأنها حملت معها أعمدة ماء نديّة بسرعة عالية. القمر الغائر، إذ بدا والغيوم تحلّق إزاءه سابحًا وجامدًا في آن معًا، أضفى على المكان سحرًا ومخاتلة. كان الهواء دخانًا معبّئًا بالبخار والرطوبة، وهناك في الجانب المقابل، عبْر التلال فما وراءها، تكوّمت سحابة ندى قاتمة بلا حراك، وبدت كأنها تغطّي وجه هاوية سحيقة. كتّفت ذراعي على صدري، لأنّ عظامي رفرفت من البرد، لكن قلبي ظلّ يصطخب بقوّة، وكأنه يتوقّع أمرًا ما. دفعت برجليّ أمامي، غير متبصّر دربي، وفي كلّ عثرة أعثرها كان يعبرني دفق ألم لذيذ. ضغطت بيدي على قلبي، بكل ما تبقّى لدي من قوة، وكنت أضمّ قوة وحكمة في آن. طابت لي تلك اللحظات، واستعدت في ذهني كلّ شيء من جديد: الوطن والليالي. نظرت عيناي باستقامة إلى

الأبخـرة التـي كانـت تعـدو مائلـة في فضـاء العالـم؛ وبـدت لي، تلـك الأبخـرة الحيـة، شـبيهة بصبـوات الليـل. كانـت تلـك الخـير أو الحقيقـة التـي عبرناهـا. اصطفقـت شـفتاي بنصـف صـوت، وسـارعتُ خطـاي. ثـم تسـمّرت فجـأة، لمّـا اصطدمـتُ بحجـر الأسـاس. صـورة العجـوز، التـي بزغـت مـن خضـمّ امتقـاع خيـوط البخـار الرقيقـة، بـدت متمغّطـة عرضيًّـا، وكأنهـا هيـكل عظمـي متمـدد في كل الاتجاهـات؛ لكننـي لـم أسـتطع التريّـث، وشـققت طريقـي حـول الحجـر؛ أغمغـم بشـفتي وأنـا أجـرّ خطـوة وراء خطـوة بثقـل. عينـاي مـن تلقائهمـا اسـتدارتا حـدّ أقـصى زاويـة رؤيـة إلى الحجـر، وفجـأة دقّـت العصـا دقّـة واحـدة متوتّـرة صعقـت قلبـي. أوقفـت المسـير ورأيـت الرجـل العجـوز وقـد اسـتقام بعجالـة وحنـق. تحـرّك، مجـرّدًا مـن معطفـه، وخطـا بضـع خطـوات نحـوي، ثـم وقـف. عصـاه كانـت تـدق الأرض بسرعـة كبـيرة، وغرغرتـه تندفـق مـن حلقـه، غـير مجانسـة لأنمـاط الـكلام. تناثـر رذاذه لوهلـة صـوب وجهـي، وعرفـت أنـه يشـتمني، إلا أننـي وقفـت بـلا حـراك. ثـم رمـى معطفـه عـلى جسـده، واسـتدار سـائرًا في اتجـاه تلّـة الجـدول. بقيـت أراقبـه، وأنـا أرتعـش حـيرة وفهمًـا في آن معًـا. الفهـم -الـذي يحـضر أحيانًـا بسرعـة الوميـض وقـتَ يكـون لغـز الأحـداث أكبر مـن أن يسـتوعب- وافانـي عـلى عجـل حـين مـضى الحـج في طريقـه واختفـى في الضبـاب: لقـد عرفـت أنـه أراد أيضًـا اسـتعادة الوطـن مـن جديـد مثـلي. طـوال تلـك الليـالي كنـت أنغّـص عليـه؛ وأمـلأ الهـواء صبـوات غريبـة. ثـم لـم يتمالـك نفسـه: هـا هـو يمـضي بعيـدًا، صورتـه تطفـو، مغلّفـة بالبخـار؛ هـا هـو يمـضي متـأوّدًا صـوب المنحـدر، وكأنـه ينـزل إلى بـلاد سـفليّة؛ فقـط كلبـه ظـلّ يطلـق في وجهـي نباحًـا مكظومًـا.